

البحر كرمز الحزن ومعاناة المرأة في الرواية "امراتان على شاطئ البحر" لحنان الشيخ

نصيرين آرا

الباحثة، قسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة كشمير، جامو وكشمير

ملخص البحث:

تتناول هذه المقالة البحثية نوع اضطهاد المرأة العربية المسلمة والمسيحية في المجتمع الأبوي في رواية «امراتان على شاطئ البحر» ل«حنان الشيخ» من منظورها والتي تعرف بصفتها كاتبة نسائية، والجدير بالذكر أنها كاتبة ممنوعة في معظم البلدان العربية كما تعتبر نظرتها المتمردة للمجتمع العربي مثيرا للجدل وتتهم بأنها تشيع الفاحشة خلال كتاباتها بين قوم الأنثى. تهدف هذه المقالة إلى إبراز معاناة المرأة العربية ومكانتها في المجتمع العربي. ستعالج هذه المقالة معاناة الأنثى الداخلية والخارجية كما سلّطت الكاتبة الضوء عليها في روايتها هذه والذي يتم بالدراسة التحليلية للرواية «امراتان على شاطئ البحر». كلمات مفتاحية: رواية، معاناة المرأة، تمرد، المجتمع العربي، المجتمع الغربي.

المقدمة:

إن المرأة وقضاياها تعتبر من أهم القضايا التي شغل بها الأدباء و الكتاب منذ دهر طويل، وقد تناولوا هذا الموضوع المهم عبر العالم حسب اتجاهاتهم الفكرية ونظرياتهم المتنوعة ، حتى تسابقوا في وصفها وتصويرها حسب نظرياتهم وأفكارهم المختلفة، حيث صورها البعض في صورة الأم والزوجة والحبيبة وربة البيت وما إلى ذلك، بينما عبر عنها البعض بأنها مظلومة وخاضعة للسيطرة الذكورية والتقاليد البالية. وأما الكاتبة اللبنانية «حنان شيخ» التي كانت من مواليد لبنان ، كانت من أولئك الأديبات العربيات اللواتي عبرن عن اضطهاد المرأة وتمردها وعنقها المنزلي وتحرشها الجنسي واستبدادها العائلي تعبيراً صادقا. إن اضطهاد المرأة ومعاناتها في المجتمع الأبوي من الموضوعات



المهمة التي تحيط بجميع أعمالها الأدبية بما فيها القصة والمسرحية والرواية .

تحليل الرواية « امرأتان على شاطئ البحر »

تشتمل هذه الرواية على امرأتين لبنانيتين. إحداهما مسلمة واسمها «هدى» والأخرى مسيحية واسمها «إيفون». كانت الأولى من العائلة المتدينة في بيروت. إذ كان أبوها رجل متدين وأمها أيضا من سلالة متدينة، و كانت لها أخ واحد. وأما الأخرى فإنها كانت من العائلة المسيحية التي تعيش قرب البحر، على نحو ما نعرف من هذا الاقتباس الروائي:

«أنا من لبنان، من الشمال.....ولدت على البحر»^١

أبوها محامي وأمها من عائلة إقطاعية. لها ثلاثة إخوة وأخت واحدة.

ذكرت الكاتبة في بداية الرواية المذكورة معاناة الشعر الطويل للمرأة ولكن يبدو أن معاناة المرأة في المجتمع الأبوي كانت مركز أفكارها مثل جميع الروايات لها، واستخدمت

١ الشيخ، حنان، امرأتان على شاطئ البحر، ص: ٣٤

البحر كرمز للتعبير عن أفكارها في هذه الرواية.

كانتا قد تعرفتا ببعضهما في منتدى إحدى الجامعات في لبنان كالضيفتين المغتربتين لإلقاء المحاضرة. فتقوّت صداقتهما. كلتا الصديقتان قد تركتا لبنان منذ خمس عشرة سنة، «هدى عن طريق سوريا، وإيفون في سفينة يونانية أبحرت فيها من مرفأً جونية.»^٢ كلتا البنات تشوقان إلى البحر منذ صغرهما ولكن لهما ذكريات مؤلمة تتعلق بالبحر التي تعود إليهما حينما تغطسان في الريفيرا الإيطالية وهم في الثلاثين من عمرهما.

إيفون المسيحية تمتعت بقدر من الحرية أكبر من قدر صديقتها هدى المسلمة الشيعية في الصغر. هي عاشت في منزل قرب البحر وتتنقن السباحة منذ صغرها. تسبح مثل إختوتها وتصطاد ثمار البحر فتلذذ بذلك العائلة ذات الأصل إقطاعيا من سلالة أمّها. تلد خمسة أطفال، ثلاثة ذكور وابتين اثنتين. هي تحرص على الأولاد الذكور فقط لأنها تعتقد أنهم سيرجعون لها مجدها وستتمكن لها الفخر بين أقاربها. ولكن أبناءها الثلاثة هم عاطلون عن العمل، ويعتمدون على إيفون. إيفون هي التي تجلب لهما السعادة والرزق لأنها صاحبة شركة إعلانات في لندن. وأمها تعدها سببا لعطل ابنائها عن العمل، هي تعتبر أن إيفون هي التي جلبت الشقاء لإختوتها برمي نفسها في البحر من الصخرة المحرّمة، تقول لإيفون:

«لم ينجح كله بسببك..... أنت التي كسرت شوكة ظهره (طانيوس) بل كسرت ظهر الثلاثة..... إلا بدك تنافسهم، بدك تسافري، أناية. . وهم ساعدوك تكسري شوكة ظهورهم من طيبة قلوبهم. . وإلا.. كنت هلق قاعدة بالمطبخ.....»^٣

إيفون تعتقد أن أمها تحب أبناءها فقط، وتدلّهم، لا هي وأختها المتزوجة التي تزورهم مرّة كلّ أسبوعين.

أثار غضب أمها تجاهها منذ غطست إيفون من الصخرة الممنوعة في البحر رغم التحذيرات من نساء الحيّ. كان يغطس من هناك إختوتها فقط، وكانت ممنوعة على إيفون. وبعد غطس إيفون، مرض أخوها الكبير «طانيوس» واتخذت أمها إيفون سببا لهذا الأمر.

_____ وكردّة فعل لغضبها قرصتها أمها قرصا عميقا، التي تجرحها جسديا وعاطفيا ويترك

٢ المصدر نفسه، ص: ٥٠

٣ المصدر نفسه، ص: ٩٤

ندوبا عميقا ذهنيا عليها إلى الأبد. « لم تكتف أمها بقرصها في وجهها. قرصتها في زندها. لوت لها أنفها. لم يتوقف حنقها عند ذلك الحد. الانتقام كان يغلي في صدرها.....»^٤
أمها تطالب منها المساعدة لأخيها الأكبر «طانيوس» أن يفتح مقهى. ولكن تحتج إيفون قائلاً:

«مجبورة تجاهك وتجاه والدي... لا إخوتي وزوجاتهم وأطفالهم.»^٥ رغم الحقيقة أن إيفون هي التي اجتهدت وامتلكت شركة إعلانات ورفعت مستواهم من باقي الفلاحين إلى عنفوان أجدادها الأول ولا يحتاج إخوتها أن يعملوا في الحقل كباقي الفلاحين.

وأما زوجها فهي لا تظهر تعلقها بالرجال رغم رغبتها به لأنها لا تريد أن تشيع رائحة الوحدة ورغم هذا الحذر خُذعت من الرجال، «لذلك كانت بدلا من أن تحب الرجل تتصارع معه، تُريه عضلاتها.....»^٦

وأما هدى فلا يسمح لها بالخروج من بيتها وشعرها مكشوف أو تكون ثيابها قصيرة، وأما السباحة فضاق البحر على هدى منذ صغرها، هي تحلم به وترسمه في دفترها المدرسي، ورأته في الحقيقة عن بعد للمرة الأولى عندما صاحبت جدتها إلى زيارة صديقة لجدتها. ثم للمرة الثانية شاهدته مع المجتمع عندما ذهبت لمشاهدة الباخرة الإيطالية التي ارتطمت وغاصت في الرمل، غير مصدقة أنها تلمس ماء البحر حقا. ولها تجربات عديدة للسباحة ولكن في مايوه مستعار مع بنات من بلدتها، كن يذهبن خفية مع قريبات لهن راشدات إلى حمام النسوان المسقوف. وهدى رغم زجر والدها وبكاءه وصمت أمها لأشهر لم تنب ولم تتوقف من الذهاب إلى البحر. وذات يوم ضبظها والدها عندما علم بأن ابنته كانت على شاطئ البحر، لطمها والدها على وجهها ولأنه كان مسلما ومتدينا كما سبق الذكر، تأسف تأسفا شديدا، رفع صوته بالبكاء قائلاً: «لو أنها ضبظت وهي ترقص، أو من غير غطاء يغطي رأسها، أو برفقة شاب، لكن أن تضبظ في المايوه وهي بين أحضان الماء؟»^٧

كما تشكو هدى إلى الله أنها خلقت في بيت متدين: «.....كيف يستطيع والدي أن

٤ المصدر نفسه، ص: ٤١

٥ المصدر نفسه، ص: ٩٤

٦ المصدر نفسه، ص: ٩٥

٧ المصدر نفسه، ص: ٨٤

يكمل وظيفته، يهدي، ويزوج الآخرين، ويطلق المتزوجين، ويفسر القرآن ويُفتي في الحلال والحرام وأنا ابنته؟.....»^٨

وكان أخوها وأمها هما اللذان أثارا غضب والدها عليها، لأنهما كانا يشكّان على ذهابها إلى البحر، ورغم مدافعة هدى عن نفسها، يثبتان أنها قد ذهبت في الواقع إلى البحر، ويكتشف من الرواية أن سبب منع الذهاب إلى السباحة في الطائفة المسلمة الشيعية هو سبب ديني أي اعتقادهم بأن الماء هو مصدر الحزن عندهم بالإضافة إلى مصدر النظافة والحياة، يحول في أذهانهم ذكرى مقتل الإمام الحسين بالقرب من كربلاء حيث منع الماء عن الإمام الحسين ومن كانوا معه.

«وهي تدرك أن كون والدها من رجال الدين وأمها من سلالة رجال الدين سيلحق بها إلى الأبد ويسدّ عليها ليس أبواب الحياة فقط بل حتى خرومها.»^٩

وكما أتهمت إيفون بكونها سببا في كون أخيها عاطل عن العمل، أتهمت هدى بقتل أبيها بعد أن أمسك بقلبه في المسيح. نستخلص أن هدى تتأسف على وجودها في عائلة تخالف أمنيتهما وتحزن حينما يصوم ويصلي أبوها بسبب ذنبها، ولكن لا تستطيع على كبت شوقها إلى البحر وتستمر في ذهابها إلى البحر ولبسها المايوه ولو كان مستعارا.

كلتا الصديقتان تواجهان التشدد من أمهما عقب إتباعهما لشهوتهما تجاه البحر.

«ولدهشتها تعلّمت أنّ البحر ليس للجميع كما أيقنت، حتى أن صيادي السمك كانوا يأخذون إذنا قبل أن ينطلقوا بقواربهم.»^{١٠}

تدور أحداث الرواية عقب الحرب اللبنانية وعقب هجرتهما من بلديتهما إلى الغرب وحصولهما على استقلالهما. حب البحر والعقلية الواحدة هي التي تجمع بينهما. هدى تعمل كمخرجة مسرحية في كندا وتسكن مع أخيها وإيفون صاحبة شركة إعلانات في لندن. وتتوفر لها هذه الظروف بأن تتمتع بعلاقات جنسية كما تشاء، هدى تشعر بالراحة وتعترف بأن الناس في الغرب يدركون كلمة مضاجعة، وفعل الحب، والفخذين، وأما الشرق (كما تقدم لبنان مثلا) فلا تعرف هناك هذه الكلمات، تركز هناك على الوجه والنظرات وكلمة الزواج وأما بقي الجسد فتلغيها الملابس هناك، ولا تتمكن المرأة بظهر

٨ المصدر نفسه، ص: ٦٥

٩ المصدر نفسه، ص: ٢٢

١٠ المصدر نفسه، ص: ٤٣

جمالها كاملا في الشرق.

وبالإضافة إلى شوقها إلى البحر، تمهوي إلى علاقة جنسية، نتعلم من الرواية أن لها علاقات ودية مع رجال ولكن لم تضاجع أي أحد منهم بكونهم أكبر منها سنا ومتزوجين ولم يكونوا مخلصين معها.

السماح بالسباحة في البحر هي الحرية لهدى وإن كانت هناك نواحي مختلفة أخرى لكن كل تركيزها هو على البحر، لأن السباحة تعني الحرية في استعمال جسدها كما تشاء للاستراحة.

كلتا البطلتان قد نجحتا في حياتهما بعد هروبهما من الحرب اللبنانية في سن المراهقة، وهما الحين في الثلاثين من عمرهما وتبحثان عن رجل لكل واحد منهما في الريفا الإيطالية حيث جاءتا للتمتع والاستراحة. اختارتا إيطاليا للاستراحة بسبب كون البحر. وإن كانتا في لندن وكندا لم تشعرنا بالراحة مثل هذه. البحر يمنح لهما الحرية لاستعمال جسدهما كما تشاء، حتى تقول إيفون أن لبنان حرّ ورطوبة ولندن ميتة رغم وجود الجو البارد هناك، تتوقّر نمطا آخر من اللقاءات في الحانات والسوبر ماركت والمنزهات وعبر الإنترنت وكثيرا من مواضع أخرى وما وجدت التلذذ هناك مثل التلذذ بالبحر. وفي لبنان كانت تمنح بعضا من الحرية وليس كاملا.

إيفون مستعدة لأن تحمل طفلا في بطنها دون الزواج كالسيدة مريم في دينهم، وتريد أن تحافظ على هويتها به.

كلتا الصديقتان تتمتعان بالبحر. تشعر إيفون أن البحر يتوقّر لهما ما كان تحنّ إليهما. وهدي أيضا تنتعش، تستمتعان بالتغازل مع الرجال، وتقضيان معظم أوقاتها خارج الغرفة أي على شاطئ البحر. إيفون تستمتع بالسباحة مع ثلاثة شبّان في البحر وتعجب بأحدهم المسمى «لوتشو»، أصغر من إيفون سنّا وتريد أن تضاجع معه، وهدي يتغازل معها شاب إيطالي «ألبرتو» الذي هو مهندس زراعيّ وهي أيضا تستمتع به وتريد المضاجعة معه. ولكن الرواية لا تكشف الأحداث بعدها وتنتهي في المساء حينما تريدان الصديقتان أن تشبعا من البحر وعلى شاطئ البحر ترجع الذكريات المؤلمة إليهما وقسوة عائلتهما إليهما.

يكشف لنا أن هدي هي ليست مثل بنات متدينة، هي لا تريد أن تأكل وتشرب وتكتفي

بالركض والنوم والسير فقط، بل تريد اللعب مع جسمها كما تشعر بالراحة حينما تسبح في بيروت مع بنات من حمّها، كما تصف الكاتبة «حنان الشيخ»:

«تشعر أنها تملك شيئاً، جسمها أتى إليها كهبة.....»^{١١}

«هي فقط تستطيع أن تعلّم نفسها السباحة وليس الآخرين الذين كانوا يمدّون أياديهم، واحداً واحداً ليتلقّوا عند بطنها وكأنهم يمدّون إليها دولاّب النجاة المؤكدة ولكنها رأت أياديهم كالأفاعي أشدّ برودة حتّى من الماء، وأكثر تحرّكاً والتواءً فهي لم ترتج حتّى لذراع ذلك الرجل الذي أحبّته.»^{١٢}

لا تثقان بالخرافات الشعبية. تضحكان على العقلية اللبنانية. إيفون تخبرها أن أمها كانت تمنعهم عن الشرب فور السباحة لأنها بدلا من أن تهدأ الإنسان يجعل الصدر ترقص. لم تصدق أي من خرافاتهم حتى سبب التحذير من الغطس من الصخرة العالية الممنوعة.

وهناك النقطة الأخرى ذكرتها الكاتبة أن البنات رغم كراهيتهما للتقاليد اللبنانية تفتقدان للبنان. هدى تندم على كونها على شاطئ البحر رغم رغبتها إليه وأيضا تقول عن نفسها، حين سألتها المهندس عن أصلها ووطنها أنها امرأة سعيدة تمتلك كل شيء، أنها جبانة لأنها بدلا من البقاء في لبنان كما فعل بعض اللبنانيين، هي هربت من الحرب ومنحت لنفسها الاغتراب. تقول:

«.....تركت لبنان لأنّي جبانة. لم تكن لديّ الشجاعة أن أتّجه إلى العمل المسرحي إلاّ في بلد جديد عليّ.»^{١٣}

ولكن لبنان تركت لهما ندوبا داخلية وخارجية. وأما الندوب الظاهرة فهي الإعتداء الجسدي من قبل أمهما عقب تبعهما لهواهما. كما سلف الذكر أم إيفون قرصتها في زندها، ولوت لها أنفها، هكذا تشعر إيفون بالانزعاج والاضطراب حين تفكّر عن نفسها وعن ماضيها.

كأنهما تفيدان بأنه ليس ممكنا أو ليس لديهما شجاعة لتتمردا على المجتمع الأبوي

١١ المصدر نفسه، ص: ٢٦

١٢ المصدر نفسه، ص: ١٧

١٣ المصدر نفسه، ص: ٦٧

في بلدهما لبنان ويصعب عليهم تحقيق أمنياتهما النجاح والشهرة وهم مقيمتين في لبنان.
تعاينان من التشوش الداخلي رغم تحقيق أمنياتهما. كلتا الصديقتان تظنان أنهما
قدرتان. تتأسفان على وجودهما.

هكذا تمنح لهما البحر وشاطئه السعادة والحزن معا إذ تستريحان بالسباحة فيه
والمغازلة هناك من قبل الرجال ولكن ذكريات ماضيهما المؤلم يتركهما صامتتين.

الخاتمة:

نلخص مما قدمنا أن الكاتبة تتناول في هذه الرواية لها معاناة المرأة العازبة خلال
نموذجين اجتماعيين وذلك عبر رمز «البحر». تتعلّق الكاتبة بحرية هذي النموذجين من
لبنان وحلمهما البسيط الممنوع والمشاعر المكبوتة بالبحر، كأن الكاتبة تود أن تقدم
فكرها أن المرأة ليست حرة في اختياراتها، لا تستطيع استعمال جسدها وفكرها ومشاعرها
كما تشاء، بل تجبر بأن تتبع قواعد المجتمع الأبوي، سواء كان المسيحية أو المسلمة.
وإن تلاقي المرأة المسيحية بقدر من النسبة أكثر حرية في تصرفاتها من المرأة في المجتمع
المسلم. ولكن نتعلّم في النهاية أن الشيء الذي يُعتبر بمثابة الحرية عند المرأة المسلمة هي
وسيلة للاستغلال عند المرأة المسيحية إذ تفيد إيفون أنها تخدم الرجال في عائلتها دون
أي معاوضة. تفعل ذلك باسم المحبة تجاه عائلتها. كما أخبرت إيفون في الرواية: «البحر
ليس للجميع كما أيقنت»^٤. المسيحيون يمنحون الرجال فقط في بعض التصرفات، وإن
تجاوزت حدودها هم أيضا يضطهدونها ولو كان الاضطهاد الجسدي قليلا ولكن يكون
الاضطهاد أشد ذهنيًا.

الكاتبة تقارن بين الشرق والغرب، هي تعتقد أن الحرية هي في استعمال الجسد
واللعب به وتظن أن الغرب تمنح المرأة هذه الحرية لكل طائفة في المجتمع، ولا توجد مثل
هذه الحرية في الشرق.

وتبلغ الكاتبة أن المرأة هي فقط تستطيع أن تجلب لها السعادة إذا تريد وليس
الآخرين الذين يستغلونها.

المصادر والمراجع:

١. الشيخ، حنان، امرأتان على شاطئ البحر (بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م). ص: ٩٦
٢. جورج جحا، «جديد حنان الشيخ-رواية «امراتان على شاطئ البحر» والتركيز على التمييز في معاملة النساء»،
عرب ٤٨، ٢٤/٠١/٢٠٠٣
٣. «حنان الشيخ..وامراتان على شاطئ البحر»، ١٥/١/٢٠٠٣
4. (www.aljazeera.net)
5. Yasmine El-Geressi, "Hanan al-Shaykh: "I am Tired of Being Referred to as an Arab Feminist Writer" (www.engmajalla.com)
6. Sumaiyya Naseem, "The Occasional Virgin: Two Arab Women who Refuse to Play by the Society's Rules", The New Arab
7. Liz Thomsan, "Hanan al-Shaykh's Girls Just Want to Have Fun", Publishers Weekly, Jul 06, 2018